نجوم فى سماء الفن

- (سيد درويش) فن من الشعب للشعب
- (محمد عبد الوهاب) مطرب الشعب الأرستقراطى
- (يوسف وهبى) فنان عاش ألف عام
- (نجيب الريحانى) ناظر مدرسة الضحك
- (إسماعيل ياسين) مجوهراتى الضحك.
- (عبد الحليم حافظ) أخر فرسان الرومانسية

سيد درويش

فن من الشعب وللشعب

- ٢٨ مسرحية وعشرات الأغانى فى ٣١ عاماً
- رفض المأذون عقد قرانه لأنه موسيقى فقال: اكتب يا مولانا: المهنة مدرس
- جليلة سلبت عقله وانتقم لكرامته منها
- زكريا أحمد جاءه من القاهرة ولم يغادر الإسكندرية إلا معه.
- لمن لا يعلم: «يا بلح زغلول» أغنية وطنية

هو فنان الشعب قولاً وعملاً، ولد من رحم معاناة الناس، ألحانه آهات وآحلام البسطاء والغلابة الكادحين المطحونين، عانى الجوع وقاسى برد الليالى. وداسته أقدام الغربة وثقلته الحاجة، ضربه سوط الحب. نزف قلبه لغياب المحبوبة، مات عشقاً فى حب مصر. كان صوت الشعب بكل فئاته، غنى للسقايين والشيالين والجرسونات، كان صوته ثورة تشعل نار الوطنية فى القلوب. كان سيد درويش فناناً سابقاً لعصره، جاءت الحانه علامة فى تاريخ الأغنية العربية ونقلة هامة فى سيرة المسرح الغنائى. حياته مزيج من الكفاح والمعاناة والحب والألم.

فى حى «كوم الدكة» أحد الأحياء العتيقة فى مدينة الإسكندرية وفى يوم ١٧ مارس سنة ١٨٩٢م رزق درويش البحر بولد سماه «سيد» وكان مولده خيراً وبركة وإيذانا بميلاد جديد للأغنية العربية، وكانت حياته وماوهبه الله من صوت وعبقرية فنية عوامل نهضة صنعت عصراً جميلاً من الغناء.

فقد كان مثل صياد اللؤلؤ الماهر، غاص «سيد درويش» فى أعماق المجتمع المصرى وحول الدرر المكنونة إلى أغنيات رددها الملايين على مدى قرن من الزمان ولا تزال ترددها حتى اليوم.

عندما بلغ الطفل «سيد» الثامنة من عمره أرسله والده رغم فقره إلى مدرسة «شمس المدارس» وهناك بدأت مواهبه تُعلن عن نفسها، صوت جميل، إحساس وطنى عال، مما جعل ناظر المدرسة يكلفه يومياً بأداء التشيد الوطنى، فكان صوته يلهب حماس التلاميذ والأساتذة. كانت أسرته متدينة، بعد ثلاث سنوات ألحقه والده بالمعهد «العباسى» حيث حفظ القرآن الكريم وجوده.

قارئ محترف

وامتدت شهرته فى القراءة إلى أرجاء الإسكندرية، فعندما ذهب ليصلى الجمعة فى جامع «أبو العباس» كان القارئ غائبا، فطلب منه شيخ الجامع أن يقرأ سورة «الكهف» ورغم أن الخوف تملكه، حيث كانت تلك أول مرة يقرأ فيها القرآن أمام الناس، استجمع فؤاده وراح يقرآ كلمات الله: «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الحمدلله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾ـ (صدق الله العظيم). استمر فى القراءة والقلوب تتجاوب بإنصات وخشوع كبيرين.

وعلا ذكر الشيخ سيد درويش. كقارئ محترف للقرآن، ولم يكن عمره يتجاوز الخامسة عشرة. وتوفى درويش البحر، وابنه سيد مازال فى الرابعة عشرة، وترك له مسؤولية رعاية الأسرة. التى لم يترك لها مورداً للمعيشة ففتح «الشيخ سيد» محلاً صغيرا للعطارة، إضافة إلى قراءة القرآن حتى يوفر ما يكفى لمعيشة أسرته.

عاشق الموسيقى

عشق آخر للموسيقى والغناء يناديه، ووشوش به البحر إلى قلبه الصغير. ونما داخله مع نداءات الصيادين والشيالين وجرسونات المقاهى فى كوم الدكة وشارع النبى دانيال وحوارى بحرى وكرموز. فطالما غنى لنفسه على العود. الذى اشتراه من النقود القليلة التى كان يدخرها. كان يغنى أغانى عمالقة الغناء: عبده الحامولى ومحمد عثمان وصالح عبد الحى والشيخ يوسف المنيلاوى. وتمنى الشيخ «سيد» فى أعماقه أن يكون مثلهم، فيلحن ويغنى ويكون موسيقيا مثل الشيخ «سلامة حجازى»

وبدأ فى المقهى. الذى يرتاده يغنى ويلتف الناس حوله. فقد وجدوا فى صوته وفى طريقته شكلاً جديداً. حرر الأغنية من أسر القوالب والمقامات التركية وبدأ الناس يرددون معه:

«أنا هويت وانتهيت ... وليه بقى لوم العذول

يحب إنى أقول ياريت ... الحب ده عنى يزول

مادمت أنا بهجره ارتضيت ... خلى بقى اللى يقول يقول»

ووجد المحبون سلوتهم مع صوته، عندما يغيب عنهم الحبيب فغنوا معه:

«زورونى كل سنة مرة

حرام تنسونى بالمرة

أنا عملت إيه فيكم

تشاكونى وأشاكيكم

أنا اللى عمرى أداويكم

حرام تنسونى بالمرة

مطرب وملحن

وجعله حبه للفن يلتحق بفرقة أمين وسليم عطا الله، التى سافر معها إلى الشام فى رحلتين. وكانت الرحلة الثانية ذات تأثير كبير فى مستقبله الفنى، حيث درس الموسيقى على أيدى أساطين الفن ومنهم الشيخ حسن الموصلى. وتفتحت عيناه على عالم الموشحات والقدود الحلبية. فحلّق فى آفاق أرحب وأوسع، وانطلقت موهبته وتعددت ألحانه.

وامتازت ألحانه بالسهولة والبساطة، والجمل اللحنية سريعة الوصول إلى القلب، فحفظ كل الناس أغانيه ورددوا ألحانه:

«يا ورد على فل وياسمين

الله عليك يا تمر حنة

ياللى عاوج لى طربوشك

على سنجة عشرة

قرب هنا

تعالى عندنا

خد ورد يا بيه

خدى فلة يا هانم

خدلك هدية لحبيبتك

ست البنات

دنا اسمى نرجس

والله إنْ ما كنت تنفعنى

لازعق وأقول

راجل مفلس

قرب هنا

تعالى عندنا

ودق قلب سيد درويش لتطوله سهام الحب. أحب العالمة ـ الراقصة ـ «جليلة» وهى حسناء رائعة الجمال. ملكت عقله وروحه.

سهام الحب

وكان يغنى فى أحدى الليالى وأحس بأن الناس لاهون عنه، فتألمت كرامة الفنان فى داخله وكاد يتوقف عن الغناء. لكن وقعت عيناه بالصدفة على تلك الفاتنة، التى كانت تجلس بين الناس تتابع كلمات أغانيه تطربها ألحانه، حيث أشارت إليه بعينيها: «أن استمر فى الغناء فأنا أسمعك». فغنى من أعماقه كما لم يغن من قبل، وكأنه يغنى لها وحدها.

واشتهر بحبها، مما جعل عشاقه يغضبون منه، فهم يريدون أن يروه دائما فى صورة جميلة. وأشفقوا عليه من تلك المرأة المعروفة بتعدد عشاقها. لكنه الحب الذى جعله يغنى قائلا:

«تهمونى فى حبك تهمونى الله يجازيهم ظلمونى»

عشقه «جليلة» العالمة. أثار غضب أسرته فقد أساء إلى سمعتهم بارتباطه بهذه السيدة وبات مصير شقيقاته المتزوجات مُهدداً، واعتزل الفن وعمل فترة فى تجارة الأثاث وفى العطارة والنقاشة، لكن الفن كان يجرى فى عروقه مجرى الدم، لا يستطيع أن يعيش من دونه وعاد الفنان الساكن فى أعماقه يطل برأسه من جديد، وكانت العودة بدوره الشهير «فى شرع مين».

«فى شرع مين قاضى الهوى

يذله خصمه ويحكمة

هو الطبيب مالوش دوا،

وسرى إزاى أحكمه

وآدى النواح بالسر باح

يكفى افتضاح

بين العباد أمرى اشتهر».

وعاد إلى حبيبته. التى أرادت أن تشعل نيران الغيرة فى قلبه فكانت كثيرة الصدود تعذبه بأنوثتها، ولا تتركه يهدأ، فأخذ يغنى لها:

«ياللى قوامك يعجبنى

ليه بس ترضى لى صدودك

يا هل ترى بتأدبنى

أكمن عذالى شهودك»

وعندما استمرت فى دلالها. ضاق صدره من غرورها فأخذ يحذرها فى أغانيه قائلاً:

«ما تطلعيش فيها يا هانم

دى كلها يومين وتعدى

دى كلها يومين ويحيلوكى

على المعاش وحياة أبوكى»

لكن قلبه ظل يخفق بحبها، فكانت رائعته «ضيعت مستقبل حياتى»

«ضيعت مستقبل حياتى فى هواك

وازداد علىَّ اللوم وكتر البغددة

حتى العواذل قصدهم دايما جفاك

وأنا ضعيف ما قدرش استحمل كل دا»

ليالى القاهرة الساطعة

وبعد أن أشتهر سيد درويش ووصل صيته إلى القاهرة كان لابد أن ينتقل إليها. فلم تعد الإسكندرية تتسع لعبقريته الفنية. وكان الشيخ زكريا أحمد قد استمع لألحان هذا العبقرى الفذ، ولابد أن تكون له مكانته اللائقة به تحت سماء القاهرة.

عقب الإفطار مباشرة فى إحدى ليالى رمضان غادر الشيخ زكريا القاهرة فى طريقه إلى الإسكندرية للبحث عن سيد درويش. وبعد أن وصل إليه ذهب معه إلى بيته وظل يستمع لألحانه، حتى طلع عليهما الفجر، فتناولا سحورهما، وأصر زكريا أحمد على أن يصطحب سيد درويش معه إلى القاهرة، ليغنى جنبا إلي جنب مع عبده الحامولى ومحمد عثمان وصالح عبد الحى، الذين كانوا يشاركون في إحياء ليالى رمضان على أحد المسارح وفى شارع عماد الدين، وبعد إلحاح، وافق سيد درويش وحضر إلى القاهره واستمع له صاحب الحفلات وضمه إلى عمالقة الغناء لإحياء ليالى رمضان.

وبعد أول ليلة أصر سيد درويش على ترك القاهرة والعودة إلى الإسكندرية وكان السبب أن متعهد الحفلات مجمد عمر، أعطاه فى آخر الليل خمسة عشر جنيهاً. مما أغضبه فصمم على عدم العمل معه، وعاد بالفعل إلى الإسكندرية، إلى أن ذهب الشيخ زكريا أحمد إليه مرة أخرى فى «كوم بكير» وعاد به لكى

يعمل مع فرقة الريحانى، التى لحن لها مسرحيات عديدة، منها: «ولو» سنة ١٩١٩م. و «العشرة الطيبة» سنة ١٩٢٠م.

نصف الدين

أراد الموسيقار الموهوب أن يتزوج وكان قد بلغ السابعة والعشرين من عمره، كان قد استقر فى القاهرة فى جزيرة بدران. وفى يوم الخميس ٢٩ مايو من عام ١٩١٩م. جاء المأذون لعقد القران، وبعد أن حَضَّر أوراقه وبدأ فى كتابة اسمى العريس والعروس، وَهمَّ الشيخ سيد ليضع يده فى يد وكيل العروس. سأله المأذون ما هى مهنة العريس؟»

فرد بعفوية قائلا: موسيقى.

وما أن سمع المأذون هذه الكلمة. حتى انتفض مذعوراً وهب واقفاً، وأخذ يلملم أوراقه وهو يقول: «أعوذ بالله من غضب الله» فقد كانت مهنة الموسيقى، أو الغناء فى ذلك الوقت من المهن التى تعود الناس على عدم احترامها، فلم تكن تُقبل شهادة الموسيقى أو الفنان. فى المحاكم.

ولم يكمل المأذون عقد القران، إلا بعد أن قال له الشيخ سيد «أكتب يا مولانا: المهنة مدرس».

مُعَلِم الشعب

وكان الشيخ سيد درويش بالفعل معلماً. فقد ربى أذواق الناس، وأعطاهم دروساً كثيرة فى الحياة والوطنية، وارتبط بكل فئات الشعب: العظماء والبسطاء الذين أحبهم وخالطهم. وجعل من كلماتهم وتعابيرهم البسيطة ألحاناً خالدة.

غنى للسقائين:

«يعوض الله

يهون الله

ع الساقين

دُول غلبانين

متبهدلين

م الكوبانية»

كما غنى للشيالين والجزارين وللشحاذين والمراكبية والجرسونات، وطاف سيد درويش حوارى مصر واختلط بأبنائها وعاش حياتهم، وأخذ من كلماتهم ألحانه التى عبرت بألسنة جميع المصريين البسطاء وأهل البلد الطيبين والغرباء، الذين ارتضوا الحياة على أرضها من «شوام» ومغاربة وبرابرة، وروم وأتراك «وخواجات»، وكان لمصر مكان كبير فى قلب وعقل ووجدان سيد درويش، أحب ترابها وناسها، ونيلها، وكل شئ فيها، فى أغنياته عشق للوطن وحماسة تثير حمية المصريين، ولم يكن غريباً أن يرتبط الموسيقار الذى توحد بمشاعره مع آمال الشعب وآلامه، بأحداث ثورة ١٩١٩م وزعيمها سعد زغلول، الذى أصبح رمزا لكل المصريين، وتحدى سيد درويش الاستعمار وجعل اسم سعد زغلول. يتردد على ألسنة كل الناس، عندما لحن أغنية عن زعيم الأمة على لسان بائع متجول يبيع البلح وردد المصريون كلهم معه هذه الأغنية.

يا بلح زغلول

يا حلوة يا بلح

يا زرع بلدى

عليك يا وعدى

يا بخت سعدى

زغلول يا بلح»

كانت أغنياته تلهب حماسة الثائرين وتدفعهم إلى الثورة:

«قوم يا مصرى

مصر دايماً بتناديك

نصر مصر، نصر دين واجب عليك»

وتحولت هذه الأغنية إلى نشيد على ألسنة كل المصريين فى المدن والأرياف.

وكان بأغنياته يبعث العزة والمجد فى نفوس المصريين، حتى يهبوا للدفاع عن مجدهم ووطنهم:

«أنا المصرى
كريم العنصرين
بنيت المجد بين الأهرامين
جدودى أنشؤوا العلم
العجيب
ومجرى النيل فى الوادى
الخصيب
لهم فى الدنيا آلاف السنين»

المجدد

وخلال عمره القصير، الذى لم يمتد لأكثر من ٣١ سنة أثرى سيد درويش المسرح الغنائى بكم من الإنتاج والإبداع لم يصل إليه من عاشوا ضعف عمره، وكانت ألحانه المسرحية بمثابة ثورة موسيقية ولحنية، وبركاناً يفجر الغضب الوطنى ويؤازر الحماسة القومية، ويتناول سلبيات المجتمع والفوارق الاجتماعية والظلم الاجتماعى والاحتلال البريطانى، وفساد القصر والأحزاب، ولم تقتصر ألحانه فى هذه المسرحيات على الجمال والإبداع الفنى، وإنما كانت وقوداً للثورة.

قدم سيد درويش ٢٨ مسرحية بدأها بمسرحية «فيروز شاه» التى قدمتها فرقة «جورج أبيض» فى ٢١ يوليو عام ١٩١٨م، ثم مسرحية «ولو» لفرقة الريحانى سنة ١٩١٩م، والتى قدمت له أيضاً سنة ١٩٢٠م مسرحية «العشرة الطيبة» وقدمت له فرقة منيرة المهدية فى العام ذاته مسرحية «هدى»، وقدمت له فرقة عكاشة سنة ١٩٢١م، مسرحية «عبد الرحمن الناصر» ثم قدمت له فى العام ذاته

مسرحية «شهرزاد»، ولحن أيضا مسرحية «الباروكة» فى نفس السنة. وقدمتها فرقته التى كان يشاركه فيها عمر وصفى. وقدم بالاشتراك مع بديع خيرى سنة ١٩٢٣م مسرحية «كليو باترا ومارك أنطونيو»، وقدمت له أيضا فى العام ذاته فرقة «على الكسار» مسرحيات «البربرى فى الجيش» و «الانتخابات» و «اللى فيهم».

رحيل وخلود

وفى ١٥ سبتمبر ١٩٢٣، وبينما كانت مصر كلها تستعد لاستقبال زعيم الثورة سعد زغلول، العائد من منفاه، بعد الهبة الجماهيرية العظيمة، كان فنان الشعب الذى أشعل نيران الثورة بألحانه يسلم الروح، وكأنه كان على موعد مع تحقيق الأمل ورحل جسد سيد درويش، وظلت ألحانه الخالدة تتردد بين الناس ويقتبسها الملحنون والمطربون.